العلمانية

في السياق العربي - الإسلامي (٣)

حوار مع عبد الوهاب المسيري: العلمانية التي أفهمها

أجراه: أحمد الخميسي (مراسل الآداب في القاهرة)

قطع د. عبد الوهاب المسيري رحلةً طويلةً، بدءًا من حصوله على دكتوراه في الأدب الإنجليزي والأميركي والمقارن من جامعة رَتْجرز الأميركية سنة ١٩٦٩، وانتهاءً بكونه أحد أهمّ المفكرين الإسلاميين، وأحد قادة حزب الوسط ومؤسّسيه، مرورًا بكلّ معاركه وإنجازاته الفكرية التي امتدت ثلاثين عامًا حافلةً بعطاءٍ كان من أهم ثماره: موسوعة تاريخ الصهيونية بأجزائها الثلاثة (القاهرة ١٩٩٧)، وموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية في ثمانية أجزاء (القاهرة ١٩٩٩).

وخلال تلك الرحلة يلمع من المسيري تعبيرٌ خاصٌّ يميّزه بين مفكرين كثيرين، أعني: شغفه الأصيلَ بتأليف قصص الأطفال (عشرة كتب من أصل خمسين)، وتلك النزعةَ الحالمةَ سواء وهو يترجم مختاراتٍ من الشعر الرومانسي الإنجليزي (بيروت ١٩٧٩) أو حين يبذل قصارى جهده للتفتيش عن مخرج لمصر من أزمتها الاجتماعية والسياسية والأخلاقية بحلٍّ وسط.

وحزب الوسط، هذا الملمح الإنساني، هو ما تسجّله الذاكرةُ حين تصبح في منطقة مصر الجديدة بأشجارها العملاقة، وتَدْخل إلى العمارة رقم ٢٥ بشارع الشهيد إبراهيم سالم، وتَطْرق بابَ شقّة د. عبد الوهاب المسيري، ثم تمضي إليه في غرفة مكتبه، فتجده ممدَّدًا بهدوء على كرسي من نوع خاصّ وقد بَسطَ ساقيْه مبتسمًا بمودّة. حينئذ سترى عبد الوهاب المسيري الذي يصارع داءَ عضالاً لم يجد الطبُّ له دواءَ.

❖ ❖ ❖

*** قضية العلمانية تُطرح في مصر والعالم العربي بحدّة، خاصةً مع احتدام الصراع الطائفي والعرقي والديني. كيف تنظرون إلى العلمانية؟**

ـ قبل أن نرى إنْ كانت العلمانية تمثّل حلاً أمْ لا، علينا أن نحدّد ما هي العلمانية؟ فالحال أنّ الحديث يدور هنا عن أمرٍ خلافي، وكلمة «علمانية» تُستخدم بأكثر من مفهوم. بدايةً، كان مصطلحُ «العلمانية» في أواخر القرن ١٩ يعني فصلَ الدين عن الدولة، على أساس أنّ ذلك سيؤدّي إلى الديمقراطية والحرية. لكنّ ذلك حدث أولاً عندما كانت الدولة غيرَ الدولة الآن: فقد كانت الدول صغيرةً وضعيفةً، لا تتحكّم في أجهزة أمنية عملاقة، ولا تتبعها مؤسساتٌ تربويةٌ ووسائلُ إعلام ضخمةٌ ومؤثّرة. ولم تكن قد ظهرتْ وسائلُ محدِّدةٌ للتأثير، مثل التلفزيون والسينما، جعلتْ للصورة المرئية سطوةً كبرى. ولم تكن العملياتُ الاقتصاديةُ قد بلغتْ ذلك الحدَّ من الضخامة والشمول.

ولهذا فإننا حين نستخدم كلمةَ «علمانية» الآن، فإنّنا لا نشير إلى الواقع المحيط بنا، بل إلى التعريف الذي تخطّاه الواقع، ومن ثم يدور الحوارُ في ضوء التعريف لا في ضوء معطيات الواقع! انظرْ، مثلاً، كميةَ المصطلحات التي برزتْ للتعبير عن ظواهر جديدة مثل «الحداثة» و«الاغتراب» و«التسلّع» وغير ذلك ممّا يَرْصد في معظمه جوانبَ سلبيةً في المجتمعات العلمانية ذاتها، بينما لا يَشْمل التعريفُ الشائعُ القديمُ للعلمانية كلَّ ذلك بل يتمّ النظرُ إلى تلك الظواهر الجديدة باعتبارها ظواهرَ مستقلةً عن العلمانية. إذن، ما نزال نعتبر أنّ العلمانية هي مجردُ فصل الدين عن الدولة، ونعتبر أن ذلك يمثّل حلاً لمشكلاتنا. فهل يمكن هذا الشعارَ أن يحلّ، مثلاً، قضيةَ هيمنة السوق والإعلام المرئي على حياة المواطنين وأحلامهم؟

لقد اتّخذت «العلمانيةُ الشاملة» كما أسمّيها أشكالاً تتمثّل في فصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن جميع جوانب الحياة العامة أولَ الأمر، ثم عن كلّ جوانب الحياة الخاصة، إلى أن يتحوّل الإنسانُ مادةً للاستخدام في كلّ المجالات والمستويات. وهذا ما فعلتْه أميركا بالهنود الحمر، إذ لم تر فيهم سوى مادة غير نافعة لمشروعاتها. والإمبريالية هي شكلٌ من أشكال «العلمانية الشاملة» التي تَشْمل الحياة العامة والخاصة بحيث تتساوى الظواهرُ الإنسانية والطبيعية وتصبح كلُّ الأمور نسبيةً. لقد ولُدت العلمانيةُ من رحم الرؤية المعرفية الإمبريالية التي تَنْزع القداسةَ عن العالم وتَفْصله عن القيم الأخلاقية

حوار مع عبد الوهاب المسيري: العلمانية التي أفهمها

والإنسانية، وتحوّل الطبيعةَ والإنسانَ أداةً يمكن أن يتحكّم الأقوى فيهما. ولقد قامت العلمانية الحديثة بطرح مفهوم المواطن الذي لا يدين بالولاء إلاّ للدولة خارج نطاق أية مرجعية أو منظومة أخلاقية، إنسانية أمْ دينية. ومن هذا المنطلق دافَعَ النازيُّ أدولف آيْخمان عن جرائمه بقوله إنه مجرد مواطن كان ينفّذ أوامرَ الدولة! ومن هنا أهميةُ وضرورةُ أن تكون لنا مرجعيةٌ إسلاميةٌ يحتكم إليها أبناءُ المجتمع الواحد، نابعةٌ من تاريخنا ومجتمعاتنا، نستولد منها مفاهيمَ العدلِ والمساواةِ وقبولِ التعددية.

*** تتحدث عن رفضك لما تسميه «العلمانية الشاملة» باعتبارها مرتبطةً بالاستعمار؟!**

ـ نعم، العلمانية الشاملة والإمبريالية وجهان لعملةٍ واحدة! وقد ارتبط ظهورُ العلمانية في أوروبا بأسباب عدة، منها أنّ الوثنية اليونانية والرومانية كانت وثنيةً حلوليةً بدائية، إذ حلّت الآلهةُ في العناصر الطبيعية وتوحّدتْ بها، الأمرُ الذي جعل تلك الوثنية شكلاً من أشكال العبادة الحيوية (animism)، (في حين مالت الوثنياتُ الساميّة، رغم كونها وثنيات، إلى فكرة التوحيد). وقد عادت الحلوليةُ مرةً أخرى بعد العصور الوسطى الكاثوليكية إلى أوروبا في شكل الأفلاطونية المحدثة، لتصبح وحدةَ الوجود المادية في عصر الاستنارة ومن رحمها وُلدت العلمانيةُ الشاملة ـ التي يرفضها الكثيرون الآن، ومنهم ماكس فيبر الذي يشير إلى «ليل» العلمانية المظلم البارد.

ومن الناحية الاجتماعية فقد كان عصرُ النهضة ـ عصرُ بداية العلمانية والحداثة ـ هو أيضًا بدايةَ التشكيل الاستعماري وهو كذلك عصرُ إبادةِ الملايين، وتسخيرِ العالم بأكمله لحساب الإنسان الغربي. وهو أيضًا الوقتُ الذي بدأتْ فيه عمليةُ استنفاد الموارد الطبيعية. ولا تنسَ أنّ من أتى بالعلمانية إلى العالم العربي والعالم الإسلامي هو جيوشُ الاستعمار. العلمنة، بهذا الشكل، هي إعادة صياغة الواقع المادي والإنساني في إطار «نموذج الطبيعة والمادة،» المنفصلِ عن القيمة والغاية، بما يحقّق التقدّم الماديَّ وحسب، مع استبعاد كلّ الاعتبارات الدينيةَ والأخلاقية والإنسانية.

*** ما التعريف الذي تَطْرحه للعلمانية، وتَقْبل به؟**

ـ أنا أرفضُ العلمانية الشاملة كما قلتُ، وبالمعنى الذي أشرتُ إليه، أيْ فصل العالم عن أيّة مرجعية نهائية، والنظر إلى ما هو مادي بمعزلٍ عمّا هو روحي. العلمانية بهذا المعنى الشامل شعارٌ سخيف. انظرْ مثلاً إلى مقاوم فلسطيني، أو إلى من يقاوم الاستعمار. هل دافعُه قومي؟ مادي؟ أمْ ديني روحي؟ أمْ نفسي ذاتي؟ أمْ أنّ دوافعه مركّبة ولا يمكن فصلُ الواحد منها عن الآخر؟ لقد اتّضح لي، كما قلت، أنّ مصطلح «علماني» خلافيّ إلى أقصى درجة؛ كما أنّ علم الاجتماع الغربي فشل في تطوير مفهوم مركّب للعلمانية. ومن هنا كان اجتهادي للتوصل إلى تعريف جديد للعلمانية يحيط بمعظم جوانب الواقع الذي تمت علمنتُه: ففرّقتُ بين «العلمانية الشاملة» التي يكون العالمُ فيها مكتفيًا بذاته ومرجعيةً لذاته، وبين «العلمانية الجزئية،» وهي فصلُ الدين عن الدولة، لأنّ الإسلام ليس دينًا ودولة، بل دينٌ ودنيا. وأنا، كمفكّر إسلامي، لا أجد غضاضةً في قبول العلمانية الجزئية إنْ كانت تعني بعضَ الإجراءات السياسية والاقتصادية ذات الطابع الفني، ولا تمسّ من قريبٍ أو بعيدٍ المرجعيةَ الدينيةَ النهائية

*** بأيّ معنى تَقْبل فصلَ الدين عن الدولة معتبرًا ذلك «علمانيةً جزئيةً»؟**

ـ بمعنى أنني لا أَقْبل مثلاً أن يجلس شيوخٌ أو قساوسةٌ في لجان تناقش علاقتَنا الاقتصاديةَ مع تشيكوسلوفاكيا، أو نوعيةَ الأسلحة التي سنشتريها، إذ لا بدّ أن تكون هناك لجانٌ متخصّصة في مثل هذه المواضيع! وهذا ما أفهمه من حديث الرسول ﷺ: «أبّروا أو لا تؤبّروا، أنتم أَعْلَمُ بأمور دنياكم» فالفصل بين الدين والدولة هنا لا يمسّ المرجعيةَ الدينيةَ النهائية، بل ينصرف فقط إلى حالةٍ محدّدة (هي تأبيرُ النخل). أما إذا

أرفض العلمانية الشاملة بمعنى فصل العالم عن أيّة مرجعيّة نهائية والنظر إلى ما هو مادي بمعزل عمّا هو روحي... وأقبل العلمانية الجزئية إن كانت تعني بعض الإجراءات السياسية والاقتصادية ذات الطابع الفني.

تعلّق الأمرُ بقضايا مثل «هل ندخل الحربَ مع إسرائيل أم لا؟»، و«هل نعترف بدولة احتلت فلسطين وطردتْ سكانها،» فهنا لا بدّ من استلهام المرجعية النهائية والإطار الأخلاقي والديني. العلمانية الجزئية تَتْرك مساحاتٍ حرةً للبشر يتفاهمون بشأنها، وتترك للإنسان حياتَه الخاصةَ وعلاقاتِه الإنسانيةَ يتدبّر أمورَها حسب المعايير الأخلاقية والدينية والإنسانية. ولا تدّعي العلمانيةُ الجزئيةُ أنّها تقدّم رؤيةً شاملةً للكون، أو أنّها تجيب على الأسئلة الكونية النهائية مثل الهدف من الوجود أو قضية الموت؛ بل إنّ كلّ ما تطالب به هو فصلُ الدين ـ أعني رجالَ الدين ـ عن السياسة وربما الاقتصاد بالمعنى الذي أشرتُ إليه سابقا.

*** لكنّ عددًا كبيرًا من المفكّرين العرب العلمانيين يروْن أنّ العلمانية تمثّل حلاً لمشكلة الأقليات. أقباط مصر مثلاً، كيف تروْن وضعَهم في إطار العلمانية الجزئية؟**

ـ هناك بالطبع مفكّرون يدعون إلى العلمانية الشاملة من دون أن يسمّوها صراحةً، مثل مراد وهبة، وهشام صالح، وعزيز العظمة، وعادل ضاهر. وهم ينادون بضرورة الحكم على النسبي بما هو نسبي. ولكنْ لا بدّ من القول إنّ معظم العلمانيين العرب ليسوا علمانيين بالمعنى الغربي: فالعلماني الغربي علماني بالمعنى المطلق الشامل، أما العلمانيون العرب فإنّهم في معظمهم يؤمنون بالقيم الأخلاقية والهوية والحفاظ على المجتمع. خذْ مثلاً محمود أمين العالم، إنّه شخص ملتزم أخلاقيّاً؛ أو د. فؤاد زكريا كذلك، وله كتاب يهاجم القيمَ المادية. فبأيّ معنًى يمكن تسميةُ هذا أو ذاك بـ «العلماني» بالمعنى الغربي؟ إنّهما لم يتخلّيا قطّ في كتاباتهما الفلسفية عن الأخلاق؛ فهما من منظور علماني شامل ليسا من «العلمانيين.» وأعتقد أنّ معظم العلمانيين في مصر ينتسبون إلى هذا النمط، ويتفقون معي على أنّ لكلّ مجتمع مرجعيتَه الأخلاقيةَ النهائية المطلقة. ولهذا فإنّ أغلب دعاة العلمانية عندنا هم دعاةٌ للعلمانية الجزئية. وقد تنبّه إلى ذلك د. محمد عابد الجابري، وطالب بالاستغناء عن المصطلح تمامًا والاكتفاء بمصطلحات مثل «العقلانية» و«الديموقراطية.»

أما عن القول بأنّ «العلمانية» تمثّل حلاً لمشكلات الأقليات أو الديموقراطية، فإنّني أذكّرك بأنّ الاتحاد السوفيتي ـ ولم يكن دولةً دينية ـ لم تمنعه العلمانيةُ التي أَخَذَ بها من إبادة الأقليات. كما أنّ ألمانيا النازية كانت دولةً علمانيةً نفعيةً ماديةً بشكل كامل، فهل حَمَت العلمانيةُ حياةَ مَنْ تمّت إبادتُهم في أفران الغاز؟ وكان النازيون يصنّفون الناسَ إلى نوعين: نافع وغير نافع (وليس إلى ألمان ويهود)؛ فالرؤية النازية لم تكن عنصرية وإنما كانت علمانيةً ماديةً شاملة. وإذا كانت تركيا تتشبّث بالعلمانية إلى درجة أنّ المؤسسة العسكرية هناك هي التي تدافع عن العلمانية، فلماذا لم تحلّ مشكلةَ الأكراد؟ وحينما يتحدث البعضُ عن العلمانية باعتبارها دعوةً إلى التسامح وحلاً لمشكلات طائفية، فإنّهم يشيرون إلى مرحلة لم تستمرّ طويلاً، ولعلّها لم توجد إلاّ في الكتب!

*** إذا كنتَ لا ترى في العلمانية حلاً للمشكلات الطائفية والعرقية في عالمنا العربي، فما الحلّ الذي تتصوّره لتلك المشكلات؟**

ـ الحلّ في تقديري يكمن في نزع الأسباب الرئيسية لتلك المشكلات، لا الالتفاف حولها. ذلك أنّ سببَ تلك الأزمات الأولَ هو غيابُ أيّ مشروع للنهضة القومية، والمشاكلُ الاقتصاديةُ الخانقة. وهذا هو المناخ الذي يولَدُ فيه التعصُّبُ والبغضاءُ. ورغم مظاهر «التديُّن» التي قد يُفْرزها هذا المناخُ، إلا أنّه من مفارقات هذا الوضع أن نرى كيف يتحوّل الهدفُ من التديُّن إلى هدفٍ شخصي بحت، أيْ إلى البحث عن الخلاص الشخصي فحسب، من دون الاكتراث بالآخرين، ولا السعي إلى تحقيق العدالة على الأرض. ومن هنا يتمّ التركيزُ على تراكم الحسنات وتقدير قيمتها وعدد القصور في الجنة؛ أيْ أنّ اهتمام المؤمن هنا اهتمامٌ ماديٌّ، في نهاية الأمر، رغم التقشُّف والزهد الظاهريْن! وهنا تصبح طريقةُ تبادل التحية بين أهل الكتاب أكثرَ أهميةً من الوقوف ضدّ ظلم الحكّام والحكومات التي تستعبد جماهيرَ الأمة من مسلمين ومسيحيين. وأنا، كمسلم، أريد أن

حوار مع عبد الوهاب المسيري: العلمانية التي أفهمها

أؤسِّس مشروعًا إسلاميّاً تشترك فيه كلُّ الأمة، لا مشروعًا إسلاميّاً مغلقًا على المسلمين، وإلاّ فسيكون هذا مشروعًا للفتنة الطائفية. ومن هنا سنرى أنّ هناك مساحةً مشتركةً بين العلمانيين الجزئيين والمسلمين والمسيحيين تمثِّل نقطةَ البدء لمشروع إسلامي إنساني يَجْمع أفرادَ الأمة كلَّها ويتوجَّه إلى الجنس البشري بأكمله

*** إذا كنت تشير إلى مشروع إسلامي قادر على حلّ تلك المشكلات، فما هي ملامحُه؟**

ـ هناك برنامج إصلاحي لا يهدف إلى تهميش الدين أو إلغائه من الحياة العامة، بل السعي إلى توسيع نطاق المفهوم الديني بحيث يتّسع للاعتراف بالآخر، ولإعادة اكتشاف الدين كمنظومةٍ تقوم في جوهرها على تكريم الإنسان وتعريفِ حدوده وحقوقِه وواجباتِه ـ ومن أهمها: إقامةُ العدل في الأرض، واستبعادُ تمجيد الذات وغزوِ الآخرين. برنامجي الإصلاحي الديني يقوم على محاولة توليد منظومة إيمانية إنسانية من الدين عن طريق الاجتهاد واستلهام الممارسات الفقهية والتاريخية

*** لكنْ ماذا عن أقباط مصر في هذا البرنامج؟**

ـ علينا أولاً إعادةُ اكتشاف الرقعة الأخلاقية المشتركة بين الديانات السماوية، وهي كبيرة. أما الاختلافات اللاهوتية فيجب تحويلُها إلى المعاهد المتخصِّصة إنّ الطريق للخروج من الورطة الراهنة، وأعني ورطةَ «العلمانية الشاملة» المنفصلة عن القيم، وورطةَ التعصُّب الديني، يكون بالتوصّل إلى عقد اجتماعي يستند إلى القيم الإسلامية والمسيحية المشتركة... من دون إهمالٍ، بالطبع، للخلافات الجوهرية بين العقيدتين إنّه عقد اجتماعي يَحتكم إليه أبناءُ المجتمع الواحد. وحين أقول «عقدًا اجتماعيّاً،» فإنني أعني إطارًا إسلاميّاً هو عقيدةٌ بالنسبة إلى المسلمين، وهو إطارٌ حضاريٌّ بالنسبة إلى المسيحيين وغيرهم وفي اعتقادي أنه لا مجال للعداء بين المسلمين والمسيحيين؛ فهذا أمرٌ سخيف، ولا يوجد له مبرِّرٌ لا إنسانيّاً ولا عقائديّاً بل ولا عمليّاً. المشكلة تبدأ حينما يتحوّل الاختلافُ إلى تقاتلٍ نتيجةً للتعصُّب، وهو تقاتُلٌ لا مجال له على الإطلاق خاصةً أن العلمانية الشاملة تهاجم الإنسانَ ولا تميِّز بين المسلمين والمسيحيين أو حتى الملحدين.

أما عن أقباط مصر، فإنّني دائمًا أقول لإخواني المسلمين : ما المطلوب من الأقباط؟ أن يهاجروا إلى الغرب وأميركا؟ هم إخوتنا وأعضاء في الأمة، فكيف يُضطهدَون؟ وفي هذا السياق أتذكّر حكايةَ الخديوي عباس الذي كان يَنْفر من الأقباط، فقرّر نفيَهم إلى السودان، ولكنّه قبل أن يفعل ذلك استدعى المفتي وسأله: «هل يمكن أن أقوم بذلك؟» فقال له المفتي: «إذا كان الإسلام لم يتبدّل فلا يمكنك ذلك، لأنّ هؤلاء منّا، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.» وهذه هي القاعدةُ التي نحتكم إليها لهذا أقول إنّ «العلمانية الجزئية» تمثِّل في تقديري مخرجًا لتلك المشكلات. وبالمناسبة، فقد كان مصطفى النحّاس، زعيمُ الأمة وزعيمُ حزب الوفد الليبرالي العلماني، يعتبر نفسَه من العلمانيين، ولكنّه كان يستشهد بالقرآن دائمًا وجمال عبد الناصر ينتمي إلى النمط نفسه.

❖ ❖ ❖

كنتُ قد أرهقتُ د. عبد الوهاب المسيري، لكنّه لم يشر إلى ذلك. كان يواصل الحديث بحيوية ومودّة. كانت لديّ أسئلة أخرى عديدة، منها ما يتصل بتحوُّله من الماركسية إلى الإسلام، ومنها ما يتعلّق بتصوره لدور حزب الوسط داخل المجتمع المصري، وغير ذلك. لكنّي قرَّرتُ أن أكتفي، وأن أنصرف، متمنِّيًا له الصحة والعافية، مدركًا أنّني قد أختلف معه في الكثير، لكنّني لا أملك سوى الإعجاب الحقيقي بشخصه الإنساني، وبصراعه الباسلِ مع المرضِ والمجتمعِ والعالم.

القاهرة